كيف نقرأ القرآن ؟: مع على عزت بيجوفيتش

محمد يوسف عدس

(1)

كم من المسلمين فى هذا العالم لايقرأون القرآن ..؟ وكم منهم يقرؤه بدون محاولة لفهمه ..؟ وكم منهم إذا فهم معانى الكلمات يقرأ القرآن ولكن بدون تدبّر حقيقي ولا استيعاب؟ وكم منهم قد يفهم ويعى مايقرأ ويجتهد فى الاستيعاب، ولكنه لا يحرك ساكنا نحو تطبيق القرآن فى حياته ..؟ عن هذه المشكلة المعقّدة يتحدث على عزت بيجوفيتش من واقع خبرته الشخصية وتأمّلاته فى القرآن ...

كانت مشكلة فهم معانى القرآن ومقاصده حاضرة فى عقل العالم الشيخ محمد الغزالى وهو يضع كتاب " نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم " وكتابه " المحاور الخمسة للقرآن الكريم " و كتابه " نظرات فى القرآن " كذلك كانت هذه المشكلة حاضرة فى ذهن العالم الشيخ يوسف القرضاوى فى كثير من كتبه .. ومنها : كتاب " كيف نتعامل مع القرآن العظيم" و كتاب " تفسير سورة الرعد " ، وكتاب " العقل والعلم فى القرآن "، وكتاب " المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة: ضوابط ومحاذير فى الفهم والتفسير "

لم يكن أيّ من هذه الكتب موجودا أمام على عزت بيجوفيتش عندما شرع يكتب عن هذه المشكلة فى مايو سنة 1977 ، ولم تكن قد تم تأليفها ونشرها بعد .. ولكنه أدرك المشكلة وعاناها، وفكر فيها (بالتأكيد قبل هذا التاريخ) .. ولسنا نتوقع أن يأتي بشيئ جديد يمكن أن يضاف إلى ما قاله كلّ من الشّيْخين الجليلين .. لكن الجديد فيها (ربما) هو أنه يكتب من واقع تجربته الشخصية .. وتأمّلاته الخاصة فى القرآن الكريم .. فهو يعترف بأنه قرأ القرآن مرّات ومرّات .. ولكنه لم يتساءل من قبل: كيف ينبغى عليه أن يقرأ القرآن ..؟ ولا بد أنه أدرك أن هذه ليست مشكلته وحده بل مشكلة الكثيرين من أمثاله ممن يتعاملون مع القرآن .. ومن ثم رأى أن يكتب ليشرك الآخرين فيما توصّل إليه من أفكار وخواطر حول هذا الموضوع .. وفى ذلك كتب مبتدئا بتوجيه النظر إلى حقيقة محورية هى من أخصّ خصائص القرآن .. قال:

" يجب أن نضع نصب أعيننا ، قبل كل شئ ، أن القرآن الكريم كلٌّ لا يتجزأ . وكل آية فيه إذا أُخذت منفردة أو مُنتزعة من السياق العام لا تقدّم حقاً كاملاً ، بل تقدم جزءاً من الحق ، فنحن لايمكن أن نعرف الحق كاملا إلا إذا أخذنا القرآن كاملاً .. أما سرد بعض الآيات منفردة (وهو أمر لا مفرّ منه فى الدرس أو الإستشهاد أو فى أى تعامل آخر مع القرآن)، فلا بد أن يُفهم على خلفية فهمنا الكامل لمجمل القرآن ، فالأمر هنا شبيه بلوحة الفسيفساء ، كل قطعة فيها يتوقف معناها وقيمتها الجمالية على ما تعنيه في انسجامها مع بقية قطع اللوحة الكاملة. أما إذا أخذنا كل قطعة بمفردها فإنها لا تقدم إلا جزءاً أو لا تقدم شيئاً حقيقيا من جمال اللوحة الكاملة ..."

ومن أجل مزيد من الايضاح يضرب بيجوفيتش هذه الأمثلة:

آية قرآنية تشرّع للقصاص : {ياَ أيها الذين آمنو كُتب عليكم القصاص في القتلي} البقرة 178 ، وآية أخري تدعو إلي العفو والصفح : {وجزاءُ سيئةٍ سيئةً مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين } الشورى 40 ؛ أو آية تقول :{ يا أيها الذين أمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين } المائدة 87 , وآية أخرى تقول :{ ولاتمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ...}طه 131 ، إلى غير ذلك من الأمثلة .. يقول بيجوفيتش:

"إن من يقرأ القرآن قراءة عابرة قد يخيل إليه وجود تناقض فيه ، بينما الأمر ليس كذلك قطعا .. فحقيقة الأمر أن المسألة تتعلق بأبدع وأرفع ميزة يمتاز بها القرآن والإسلام بصفة عامة .. وهى التجانس التام بين الأمور التى تبدو متناقضة للناظر إليها لأول وهلة .. إذ يجب أن نلاحظ ونفهم أن القرآن لا يطالبنا هنا بأمر واحد .. بل يطالبنا بأمرين معا .. فهو لا يريد منا القصاص فقط لأنه يطالبنا أيضا بالعفو.. والعكس بالعكس ؛ كما لا يفرض علينا السعى للأخرة وحدها لأنه يريد منا السعى لهذه الدنيا أيضا ، أى لا يطالبنا أبدا بالسعى لحياة دون أخرى . لذلك لا يتحقق كمال الإسلام فى المسلمين الذين لا يعرفون غير العقاب (ولو كانوا على حق) لأنهم لم يعفوا .. كما لا يتحقق كمال الإيملن فى الذين لا يعلمون غير العفو ولا يجازون عن سيئة بسيئة مثلها .. ويمكن أن نستنتج هنا (ببساطة شديدة) أن المسلم الكامل هو الذى يعرف مقدارا معتدلا للأمرين معا .. هو الذى يذهب إلى القصاص ويطلبه فى موضعه وهو الذى يسمح بالعفو ويمنحه فى موضع إستحقاقه ... "

هذا الأسلوب عند بيجوفيتش هو الأسلوب ألأمثل فى فهم القرآن وتطبيقه .. وهو أفضل وسيلة يمكن أن نرتقى بها إلى مستوى الفهم الكامل لحقيقة الإسلام وجوهر رسالته .. وفى الزمن الذى نحن فيه اليوم هناك أناس بل مؤسسات إعلامية كبرى ومؤسسات دينية دعويّة وسياسية تجعل كل رسالتها و تكرّس كل جهدها للترويج لفكرة السلام والسماحة والتعاون على البر والتقوى مع الآخرين من غير المسلمين دون إعتبار لموقفهم منا .. وهل هو موقف سلام أو موقف حرب وعدوان .. إلى آخر هذه الدعاوى التى تصوّر الإسلام وكأنه الدين الذى يدعو الأنسان إلى أن يدير خده ألأيمن لمن ضربه على خده الأيسر .. فإذا لم يشْفِه ذلك استدار ليسلّمه قفاه الذى اعتاد على الصفع واستمرأه .. ثم يدعو لضاربه بالهداية وطول العمر ... !!

وهناك قلّة من الناس لا يرون فى الإسلام إلا العنف والسيف فى التعامل مع الأعداء والمخالفين فى العقيدة على السواء .. ويزعمون أن آية السيف (كما يسمونها) قد نسخت كل ألايات الأخرى التى تأمر بالبر والقسط للذين لم يقاتلوا ولم يعتدوا ولم يخرجو المسلمين من ديارهم ... وفى مناخ التشدد والتنطّع من كلا الجانبين تضيع الحقيقة ويلتبس على الناس الأمر فيتساءلون: أين الحقيقة .. ولاشك أن الأسلام يدعو إلى السلام كأساس للتعامل بين البشر .. وهو دين تعاون وسماحة لا ترتقى إليها كل مافى هذا العالم من سماحة مُدّعاة .. هذا كله حق لا لبس فيه ولا جدال .. ولكنه ليس كل الحق .. لأن الدين الذى يؤكد على هذه القيم الرفيعة يعلم مُوحيه سبحانه وتعالى أن هناك فى هذا العالم أشرارًا طامعين معتدين ومجرمين عتاة لا يرتدّون عن عدوانهم و لا يرتدعون إلا باستخدام العنف والقوة .. ومن ثمّ شرع القتال للدفاع

عن النفس .. وشرع الإستعداد للقتال دائما حتى يرتدع الطغاة الطامعين فلا يفكرون فى العدوان على المسلمين مرة أخرى .. { أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير } الحج 39 ... والذين يقاومون اليوم العدوان الظالم على أوطانهم فى فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان ، وغيرها من بلاد العالم المسلم .. يقفون فى قلب الأسلام الصحيح ... أما أعداء المقاومة من أنصار (أُسلو) والذين يستجدون الإسرائيليين لمجرد الجلوس معهم على مائدة مفاوضاة [للمنظرة] وأخذ الصور وتبادل القبلات ليقال أن هناك عملية سلام مستمرّة بينما القوات الصهيونية تواصل العدوان على الفلسطينيين واغتيال أرضهم بنشر المستوطنات وتهديد القدس العربية وفرض الحصار والتجويع وتمديد الجدار العازل فى قلب فلسطين، فموقعهم فى الإسلام مشكوك فيه ، فليبحثوا لأنفسهم عن موقع آخر ...!!

(2)

ينتقل على عزت بيجوفيتش إلى النقطة الثانية فى تأمّلاته حول الطريقة المُثلى لقراءة القرآن حيث يوصى بالمداومة على التلاوة، مع فواصل زمنية لا زمة للتفكير والتأمل فيما تمت قراءته من قبل .. ويرى أن هذا أضمن طريقة لاكتشاف ما يسميه هو (بإشعاع النور القرآني) .. إذ يكتشف القارئ المداوم على التلاوة أن هناك شيئا جديدا فى كل قراءة جديدة .. وهنا ينبّهنا بيجوفيتش إلى حقيقة أن القرآن نفسه لم يتغيّر ولكن شيئا آخر هو الذى تغير على حدّ قوله: " تغيّرنا نحن .. أو تغيرت الظروف المحيطة بنا .. أو تغير العالم الذى نعيش فيه " فهو يرى أن هذه التغيّرات هى التى مكّنتنا من الغوص فى أعماق جديدة كنّا قد غفلنا عنها أثناء قراءاتنا السابقة للقرآن الكريم .. ثم نشعرفجأة بأصداء تتردد فى قلوبنا لآيات لم نركز على معانيها فيما سبق .. يقول على عزت بهذا الصدد: " يمكن لكل واحد منا أن يتأكد بنفسه من هذا المعنى بمداومته على تلاوة القرآن" ثم يضرب أمثلة لتأكيد هذه الفكرة من تجربته الشخصية حيث يقول:

"منذ زمن بعيد وأنا مأأزال فى مقتبل عمرى كنت أتوقف أثناء قراءة القرآن الكريم عند آيات تتحدث عن العمل والجهاد والعدالة . وكنت أسجل هذه الآيات فى دفتر صغير (شاءت إرادة الله له أن ينجو من عبث رجال الأمن) وهم يفتشون فى كتبى و دفاترى الأخرى ... أذكر جيدا أن آيات وجوب ردّ العدوان والظلم والإستبداد كانت قد ملكت عليّ عقلى . عندما يتحدث القرآن الكريم عن سِمات شخصية المسلم السوية يذكر (من بينها) {والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون} الشورى 39. وكنت أنتهز كل فرصة للحديث عن هذه الآية . أما اليوم فتستحوذ عليّ الآيات التى تتحدث عن الله سبحانه وتعالى و عن زينة هذه الدنيا وسرعة زوالها .. أى الآيات التى تحثّ على التأمل وليس على الحركة .. و أذكر جيدا أن الآية التى تدل على زوال كل شيء ما عدا وجه الله عز وجل قد أثّرت فى تفكيرى تأثيرا بالغا لأنه وحده سبحانه هو الحقيقة التى لا تنقضى {كلٌّ من عليها فانْ، ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرامْ} الرحمن 26, 27 .. أى أن الله وحده كان قبل النجوم والكون كله وهو باق بعد زوال كل شيئ .. فهو الحق وحده والحقيقة الوحيدة الباقية إلى الأبد ... وعندما إنتقلت أمى إلى رحمة الله وكان قلبى يعتصر ألما وحزنا كنت لا أفارق سورة الفجر .. وأقف دائما عند هذه الآية البديعة { يا أيّتها النفسُ المطمئِنَّة إرْجِعى إلى ربك راضيةً مرضيّة ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنّتى} الفجر 27-30 وفى كل مرة كانت عينيّ تزرف دمعا ولكننى لم أجد من السلوى لنفسى خيرا من هذه الآية

الكريمة ..وكنت أتساءل من يمكنه أن يقدّم للإنسان كلمة عزاء أبلغ من هذه الكلمات إذا قُدّر له أن يقبّل وجه ولده المتوفّى ؟

وهكذا يصل بيجوفيتش فى مجال تأمّلاته القرآنية وتأثير آيات القرآن على حياته النفسية والعملية إلى حقيقة أن القرآن الكريم كما هو شريعة وتكبيرة جهاد فى ظرف ما ، هو أيضا وفى ظروف أخرى سلوان لما لا مفر منه من نوائب الدهر .. والأمر يتوقف على حالتنا الشخصية والعقلية ففى موقفٍ معيّن يجذب القرآن انتباهنا إلى شىء ما .. وفى حالة أخرى أو موقف آخر يجذب إنتباهنا إلى حقيقة أخرى ...

فإذا تركنا الجانب الفردى الشخصي من ناحية (زاوية الإهتمام) واتّجهنا إلى ما يتعلق بظروف تاريخية معينة على مستوى المجتمع .. حينئذ سوف تتركز أنظارنا على إبراز بعض الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الظرف أو ذاك وفقا للحالة القائمة .. ففى المجتمع الذى تمزقه التفرقة العنصرية تبرز الأولوية للآيات الدالة على مساواة جميع الناس و على النشأة المشتركة للإنسانية كلآية الأولى فى سورة النساء : {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرًا ونساءَ ...}.

وفى مجتمع تُنتهك فيه الحقوق الدينية .. أو تمزّقه أى نوع من التفرقة لا بد أن تبرز هذه القاعدة الصارمة المكونة من ثلاث كلمات فقط : { لا إكراه فى الدين ...} البقرة 256.. وفى ذلك يقول على عزت: " لا نفاضل نحن المسلمين بين الآيات القرآنية .. ولكن غير المسلمين يكادون يجمعون على أن هذه الآلآيه القصيرة عن التسامح الدينى هى أرفع وأبدع آية قرآنية، وهكذا يمكننا مواصلة التأمل فى هذا الاتجاه ..."

(3)

إذا كنا فى معرض الحديث عن كيفية قراءة القرآن الكريم فإنه لا بد لنا أن نشير إلى ما يُعرف بترتيل القرآن أو الأستماع إلى تلاوة القرآن.. إذ يرى بعض الناس أن مثل هذا الترتيل المنغّم قليل الفائدة أو غير جائز .. بزعم أن أغلبية المسلمين لا يفهمون ما يتلى عليهم ومن ثم فهم يركزون فقط على نغمات الترتيل وجمال الصوت.. يقول على عزت: " أرانى هنا ملزما بالقول بأننى لا أوافق على هذا الرأى .. ولا يسعنى إلا أن أذكر حادثة لا أظننى سأنساها أبدا : فقد أتيحت لى فرصة المشاركة فى مؤتمر دولى قبل عدة سنوات كان يناقش موضوع مشكلات وعوائق النهضة الإسلامية ، وتم عقد هذا المؤتمر فى مدينة كبيرة من مدن أوربا ، حيث شارك فيه عدد كبير من العلماء والمفكرين الذين قدّموا بحوثا وآراء عن تجديد الفكر الدينى فى العالم الإسلامى .. وكان كل يوم من أعمال المؤتمر يُفتتح ويُختتم بتلاوة من آيات القرآن الكريم .. كان يقوم بها واحد من أشهر قُرّاء القرآن فى العالم ..." ويمضى على عزت فى وصف الأجواء التى كانت سائدة فى المؤتمر فيقول: " كان الحاضرون يستمعون باهتمام إلى كلمات المحاضرين و العلماء ، ولكننا كنا نشعر بوجود مئات الحاضرين فى القاعة من خلال الهمسات والحركات فهذا يهمس إلى جاره وذاك يحرّك كرسيه وآخر يتصفح أوراقه، وهكذا ... ولكن بعد لحظات من شروع القارئ فى تلاوة القرآن تتوقف كل الحركات والأصوات فجأة ويسيطر الهدوء الشامل .. حتى أثناء توقف القارئ للتنفس لم يكن يُسمع فى القاعة صوت .. بل خُيّل

إليّ أن جميع الحاضرين قد توقفوا عن التنفس أيضا .. إنه الهدوء الذى يستطيع الناس فيه أن يستمعوا إلى خفقان قلوبهم بشكل منتظم .. كانت كلمات القرآن الكريم تنساب من فم هذا القارئ كنهر متدفّق .. يجرى هادئا مترقرقا حينا ثم لا يلبث أن يتحول إلى شلالات هادرة لتأخذك وتحملك بعيدا .. ولكن قمة الحدث الذى لا يمكن وصفه بالكلمات كانت فى اليوم الأخير، عندما اعتزم القارئ الشيخ أن يتحفنا بهدية خاصة قبل الفراق، لذلك إختار تلاوة سورة الرحمن .. هذه السورة بديعة رائعة متميّزة بجمال أسلوبها وتناسقها .. أظننى إلى الأن لا زلت عاجزا عن وصف الحالة التى كنت فيها وأنا أنصت إلى التلاوة .. لم أكن قبل ذلك الوقت أفهم معنى آيات هذه السورة فهما كاملا سوى الآية المتكررة { فبأى آلاء ربكما تكذبان } ولكننى بتأثير قوة التعبير الصوتي وجماله شعرت بأنى أفهم آياتها تماما ، أنا وجميع المستمعين ...

بعد الانتهاء من التلاوة فى كل يوم من أيام المؤتمر كنت أجد نفسى أقترب شيئا فشيئا من الآخرين، وكنت أقرأ هذا الأحساس نفسه فى وجوه الحاضرين، كأنهم يريدون أن يقولوا : ألا ترون .. ألسنا جميعا أخوة فى الإسلام ..!؟ " كان على عزت وهو لايزال شابّا فى العشرينات من عمره يعترض على الإهتمام المبالغ فيه بتلاوة القرآن بصوت رخيم وبدون فهم لمعانيه .. ويعتبر هذا عائقا عن الإهتمام الواجب بتطبيق القرآن فى حياة الناس ... ولذلك يقول: " بعد هذه الواقعة لن أجرؤ على تقليل أهمية الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم بدون فهم .. لأن قلوب جميع المسلمين تفهم القرآن بشكل أو بأخر من خلال التجويد المنضبط والتلاوة الجميلة المعبّرة عن المعانى .. وسيجد كل إنسان فى القرآن من المعانى بقدر مافى عقله وقلبه من رحابة وبقدر إيمانه و قوة تعلّقه بالقرآن العظيم ...".

(4)

ما لم يذكره بيجوفيتش فى هذه المقالة فيما يتعلق بسورة الرحمن بالذات أنه كانت له ذكريات معها فى طفولته المبكرة .. ففى مذكراته التى نُشرت له قبل وفاته ببضعة أشهر يتحدّث عن حبه لأمه .. ويصفها بأنها رقيقة عطوف .. وعلى جانب عظيم من التّدين والتُّقى .. فقد كانت حريصة على قيام الليل وقراءة القرآن حتى يحين موعد صلاة الفجر فتوقظه ليذهبا معا إلى صلاة الجماعة فى المسجد القريب من منزلهم .. يقول: " كنت فى ذلك الوقت صبيّا بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرى ولم يكن من السهل عليّ مغادرة فراشى الدافئ فى ذلك الوقت المبكر، فكنت أقاوم فى بادئ الأمر .. ولكنى كنت أشعر بعد العودة من المسجد بانتعاش كبير وسعادة غامرة من هذه الخبرة المثيرة .. خصوصا فى فصل الربيع، حيث تكون الشمس قد أشرقت وغمرت المكان بأشعتها الدافئة ، ولمّا تزلْ آيات القرآن حلوة نديّة تترقرق فى مسامعى، فقد إعتاد الإمام الشيخ قراءة سورة الرحمن كاملة فى الركعة الثانية بصوته العذب ، وكان هو نفسه شخصية محبوبة من جميع أهل البلدة .. كنت أعود من المسجد دائما سعيدا منشرح الصدر .. وقد إستقر هذا الإنطباع فى أعماق نفسى قويا مشرقا فى وسط ضباب كثيف من الخبرات الأليمة التى أحاطت بحياتى عبر السنين ..."